

تطوير مفاهيم نظرية الحجاج اللّغوي عند أبي بكر العزاوي
-قراءة في كتابيه "اللغة والحجاج/الخطاب والحجاج"-

**Developing the concepts of the theory of argumentation in the
language according to Abu Bakr Al-Azzawi**

**-a Reading in his book "Language and argumentation / Discourse
and argumentation"**

حسينة بن حسن¹

جامعة يحي فارس - المدينة، مخبر الدّراسات المصطلحية والمعجمية (الجزائر)
benhacene.hassina@univ-medea.dz

تاريخ الاستلام: 2022/07/30 تاريخ القبول: 2023/05/30 تاريخ النشر: 2023/06/18

ملخص:

تكمن أهمية دراستنا لهذا الموضوع في الوقوف عند أبرز الدّراسات الحجاجية في العالم العربي -وعلى رأسها دراسات أبو بكر العزاوي المتميزة؛ لأنّه أضاف للدرس العربي الكثير من القضايا وطوّرها انطلاقاً من نظرية الحجاج اللّغوي، وكان الهدف من هذه الدّراسة الوقوف عند اجتهادات العزاوي في تطوير مفاهيم نظرية الحجاج في اللّغة، وتأصيلها في التّداول العربي، منطلقين من طرح الإشكالية الآتية:

*من أين استمد العزاوي مشروع كتابيه؟ وما هو الجديد الذي أتى به؟

وتوصلت الدّراسة إلى مجموعة من النّتائج التي أسهمت في حل مشكلة البحث منها أنّ أبا بكر العزاوي تمكّن من تطوير مفاهيم نظرية الحجاج اللّغوي، مستلهما في ذلك أفكار أستاذه ديكر من جهة، معتمدا على آراء علماءنا العرب القدامى من جهة ثانية. الكلمات المفتاحية: نظرية الحجاج اللّغوي؛ أبو بكر العزاوي؛ المفاهيم الحجاجية؛ التّراث البلاغي؛ البلاغة العربية.

¹ - حسينة بن حسن، طالبة دكتوراه، تخصصّ لسانيات الخطاب.

Abstract:

In fact, the importance of studying the most prominent Studies argumentative in the Arab world, mainly the distinguished studies of Abou Bakr Al-Azzawi; as he added a lot of issues to the Arabic lesson and developed them based on the theory of argumentation in the language, Besides the aim of this study is to shed light on the jurisprudence of Al-Azzawi in the development of the concepts of the theory of argumentation in the language together with its rooting in the Arab circulation, strating from the following problem:

*from where Al-Azzawi derived his two books project? And what is new he came up with?

However, this study reached a set of results that provided significant contributions to solving the research problem, including that Abou Bakr Al-Azzawi was able to develop the concepts of the theory of argumentation in the language, thus inspiring the ideas of his professor Ducrot on the one hand, and relying on the opinions of our ancient Arab scientists, on the other hand.

Key-words: Theory of argumentation in the language; Abou Bakr Al-Azzawi; argumentation concepts; Arabic heritage; Arabic rhetoric.

1. مقدمة:

لقد ارتبط اسم نظرية الحجاج اللغوي في الساحة العربية باسم الباحث اللساني المغربي أبو بكر العزاوي الذي ذاع صيته وانتشر في هذا المجال، حيث طوّر مفاهيم أستاذه العالم الفرنسي أوزفالد ديكر (O.Ducrot) ووسّع مجالات تطبيقاتها على مختلف الخطابات، فتجسّدت بذلك -عُصارة جهده واجتهاده في أهم وأبرز مؤلفيه اللذين نحن بصدد دراستهما (اللغة والحجاج/الخطاب والحجاج) وانصبّ اختيارنا على دراسات العزاوي باعتبارها أولى الأعمال التي لاقت رواجاً كبيراً من طرف الباحثين في العالم العربي، وعلى أبرز كتابيه باعتبارهما مشروعاً متكاملًا لنظرية الحجاج في اللغة.

ولما كانت لهذه النظرية الأثر البالغ في مختلف الدراسات العربية التي شكلت بدورها مجالا خصباً، دعت بنا الحاجة للوقوف عند مزاياها في اللغة العربية، ومن خلال مقارنتها حججاً على مختلف الخطابات مع إبراز مفاهيمها منطلقين- في ذلك- من كتابيه المشار إليهما آنفاً، و محاولة تأصيلها في التداول العربي.

كما سنحاول -في ثنايا هذه الورقة البحثية- أن نقف عند دعوة العزاوي إلى توسيع وتطوير النظرية الحجاجية اللغوية ذات الأصول الغربية، ومحاولة ربطها بالتراث العربي مع استحضار بعض الشواهد التراثية التي استلهمها من كتب التراث المختلفة، لنجيب عن جملة التساؤلات الآتية:

* هل انطلق العزاوي في تطويره لمفاهيم نظرية الحجاج في اللغة من المنجز العربي، أم أن هناك إشارات في كتابيه تدل على أن ما أتى به هو من صميم الدرس العربي القديم؟
* ماذا أضافت نظرية الحجاج اللغوي- التي طوّر مفاهيمها في المغرب العربي العزاوي- للدرس العربي القديم؟

* هل هناك تقاطع بين مفاهيم نظرية الحجاج اللغوي ومواضيع البلاغة العربية؟
وجاء هذا البحث ليُسلط الضوء على مفاهيم نظرية الحجاج في اللغة وربطها بالتراث العربي انطلاقاً من النقاط الآتية:

- أولاً: الخلفية المعرفية لنظرية الحجاج اللغوي.
- ثانياً: جهود أبو بكر العزاوي في تطوير نظرية الحجاج في اللغة.
- ثالثاً: الإسهامات التراثية في أعمال العزاوي.

وتكمن فرضيتنا الأساس للإجابة عن إشكالية البحث في أن العزاوي اجتهد وساهم في تطوير نظرية الحجاج في اللغة، خاصة وأنه ربطها بما جاء في تراثنا العربي من قضايا بلاغية ونحوية ونقدية، لنصل في النهاية إلى إثبات مختلف النتائج المتعلقة بالهدف العام لبحثنا، والتي أدرجناها ضمن خاتمة البحث، وكان من أبرزها : أن العزاوي قد تمكّن من إعادة قراءة التراث العربي بنظرة غربية، الشيء الذي أسهم في تطور الدرس الحجاجي البلاغي العربي.

2. الخلفية المعرفية لنظرية الحجاج في اللغة:

قبل أن نخوض في غمار دراسات العزاوي⁽¹⁾ من خلال كتابيه، وددت الإشارة إلى التأصيل الغربي لهاته النظرية مع مؤسسها الفعلي، ونضع لها مفهوما عاما:

1-2 نظرية الحجاج في اللغة وأوزفالد ديكر:

إنّ الحديث عن نظرية الحجاج في اللغة يستدعي منا الوقوف عند مؤلفات ديكر وزميله جون كلود أنسكومبر (J.C.Anscombe) لاسيما كتابهما "الحجاج في اللغة" (L'argumentation dans la langue) الذي أُلّف سنة 1973، فهي نظرية متشعبة الفروع ومتعددة المواضيع لذا لا يمكن الحديث عنها بشكل تفصيلي أو الإلمام بها في غضون هذه الورقات، وبذلك اقتصرنا للحديث عن وظيفتها وموضوعها، وعن أهم الأعمال التي أتى بها مؤسسها الفعلي ديكر.

إنّ نظرية الحجاج في اللغة هي نظرية لسانية تنطلق من فكرة مفادها أنّ الحجاج يكمن في بنية اللغة ذاتها، وأننا نتكلّم عامّة بقصد التأثير⁽²⁾ كما أنّها تهتم بالوسائل اللغوية وبإمكانات اللغة الطّبيعية التي يتوفر عليها المتكلّم وذلك بقصد توجيه خطاب المتكلّم نحو وجهة ما، ثمّ كنه هذه الوسائل من تحقيق الأهداف الحجاجية، فاللغة إذن تحمل بصفة ذاتية وجوهرية وظيفة حجاجية⁽³⁾ والحجاج عندهما هو الآلية الأبرز التي يستعمل المرسل اللغة فيها، وتتجسّد عبرها إستراتيجية الإقناع.⁽⁴⁾

⁽¹⁾ يُعد أبو بكر العزاوي من أبرز مؤسسي نظرية الحجاج في العالم العربي، وخير دليل على ذلك تتلمذه على كبار اللسانيين الغربيين أبرزهم ديكر وإنجازه لأعمال جدّ متميزة في هذا المجال، وهو باحث مغربي ناقش أطروحته الأولى سنة 1990

⁽²⁾ كانت موسومة بـ "بعض الروابط التداولية في اللغة العربية، مقارنة أصواتية" باللغة الفرنسية بإشراف ديكر، والثانية كانت بعنوان "الحجاج في اللغة العربية: دراسة في المنطق اللغوي" ونوقشت سنة 2003 بإشراف محمد مفتاح، وعثر العزاوي عن علاقته بأستاذه ديكر في كتابه "حوار حول الحجاج" بقوله: «ترجع علاقتي بالحجاج إلى سنة 1984 حيث سجلت أطروحتي الأولى لنيل شهادة الدكتوراه...» يُنظر، ص: 99. ويشغل حاليا أستاذ التعليم العالي بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي سليمان في تخصّص اللسانيات وتحليل الخطاب ونظريات الحجاج، من أبرز مؤلفاته: اللغة والحجاج، الخطاب والحجاج، اللغة والمنطق، حوار حول الحجاج...

(1) الحجاج والمعنى الحجاجي، أبو بكر العزاوي، مقال ضمن كتاب: التّحاجج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ط1، الرباط، منشورات كلية الآداب، 2006، ص: 14.

⁽³⁾ المرجع نفسه، ص: 55.

⁽⁴⁾ إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، عبد الهادي بن ظافر الشّهري، ط1، ليبيا، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004، ص: 456.

كما تهدف هذه النظرية إلى اكتشاف منطق اللغة؛ أي القواعد الداخلية للخطاب والمتكلمة في تسلسل الأقوال بشكل متنامٍ وتدرجي.⁽¹⁾

أما إذا جئنا لنحدث عن موضوع نظرية الحجاج في اللغة: «فهو بيان ما يتضمنه القول من قوة حجاجية تمثّل مكوّنًا أساسيًا لا ينفصل عن معناه، يجعل المتكلم في اللحظة التي يتكلّم فيها يوجّه قوله نحو وجهة حجاجية ما»⁽²⁾ فمثلا قولنا: "تلك المنطقة ملائمة لكنّها بعيدة" هي عبارة تحمل معنى حجاجيا؛ إذ بمجرد تلفظنا بهذه العبارة وجّهنا قولنا نحو وجهة حجاجية واحدة، والمتمثلة في "رفضنا التّام لتلك المنطقة" فالواسم اللّغوي "لكن" عمل عمله في توجيه القول نحو نتيجة واحدة دون غيرها.

وما يلاحظ على نظرية ديكروديك-كذلك-أنّها انبثقت وتولّدت من تلك الأعمال التي قام بها كل من أوستين وسورل؛ إلا أنّ ديكروديك قام بتطوير أفكار هؤلاء وهذا ما يظهر جلياً من خلال إضافته للفعليين هما: "فعل الاقتضاء وفعل الحجاج"⁽³⁾

وعليه يمكن القول إنّ ديكروديك نادى بفكرة الوظيفة الحجاجية للغة، واعتبر المعنى الحجاجي للأقوال أساسيا بالنظر إلى المعنى الإخباري الذي اعتبره ثانويا وهامشيا، وهذا ما عبّر عنه بقوله: «إنّ التّتابعات (التّرابطات) الحجاجية الممكنة في الخطاب مرتبطة بالبنية اللّغوية للأقوال وليس بالمحتوى الإخباري فقط»⁽⁴⁾ فالدور الأساسي الذي تقوم عليه نظرية الحجاج اللّغوي هو إبراز القوة والوظيفة الحجاجية الكامنة في بنية الأقوال، وكيفية الاشتغال فيها. هذا ما سيفتح لنا المجال للحديث عن استنبات هذه النّظرية وتجليها في الدّراسات العربية الحديثة مع رائدها في العالم العربي عموما ومغربه على وجه الخصوص الباحث والتّأقّد اللّساني والمنطقي أبو بكر العزاوي، لنقف عند خصائص تطوير مفاهيم النّظرية.

(1) اللغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ط1، الدار البيضاء، منتديات سور الأزيكية، 2006، ص: 08.

(2) نظرية الحجاج في اللغة، شكري المبخوت، مقال ضمن كتاب: أهم نظريات الحجاج في التّقاليد الغربيّة من أرسطو إلى اليوم، حمادي صمود، تونس، كلية الآداب بمنوبة، ص: 352.

(3) يقصد بفعل الحجاج: العملية الحجاجية القائمة على الحجاج والتّنازع والعلاقة بينهما، فالحجاج إذن يتمثّل في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها بمثابة الحجج اللّغوية وبعضها الآخر بمثابة التّنازع التي تستنتج منها، للتوسع أكثر يُنظر للغة والحجاج، ص: 16.

(4) L'argumentation dans la langue, O.Ducrot, et Anscombe, éditeur bruxelles, pirre mardaga, 1983, p : 09.

2.2 مميزات نظرية الحجاج في اللغة عند أبي بكر العزاوي:

لقد ميّز مشروع العزاوي ودعوته الجديدة عدّة خصائص اكتشفناها من خلال قراءتنا لمؤلفيه نوجزها في النقاط الآتية:

* إدخال نظرية الحجاج اللّغوي في الدّرس اللّساني العربي وعرضها عرضاً موجزاً ومبسّطاً.

* التّطرق لآليات اشتغال هذه النّظرية وعرض مفاهيمها الأساس.

* التّنزيل الدّقيق للنّظرية، حيث طبّقها على مختلف الخطابات بداية بكلام الله عزّ وجلّ مروراً بالشّعور والأمثال وصولاً إلى الخطاب الشّعري.

* الشّمولية والتّوسع خاصّة فيما يتعلّق بالاستعارة وذلك بإدراجها ضمن ما يسعى بالقوة الإنجازية وأصبح يُطلق عليها اسم "حجاجية الاستعارة" فمع هذا التّوسع أفاض أبو بكر العزاوي في التّطبيق، معتمداً مقارنة لغوية ملتصقة بالنّصوص، محصياً العناصر ومنهياً للأساليب، تقسيماً وتجزئاً فلم تبق آليات الحجاج في اللّغة مجرد مفاهيم، بل تمّ تطبيقها لم يغرق التّحليل في التّضخيم النّظري، بل كانت الآليات تُجرب نصّياً.⁽¹⁾

* طوّر العزاوي نظرية ديكر في انتقاله من تحليل الجمل إلى تحليل الخطابات، والانتقال من تحليل الرّوابط باللغة الفرنسية إلى تحليلها باللغة العربية، وإضافة روابط أخرى، ويقول في هذا الصّدّد: « إنّ نظرية الحجاج في اللّغة قابلة للتّطوير وبإمكانية تطبيقها على مختلف الخطابات »⁽²⁾ كما نلمس ميزة التّطوير في إدخال العديد من المفاهيم والمصطلحات الجديدة من قبيل: القوة الحجاجية، البرنامج الحجاجي، تعالق الرّابط الحجاجي، الحجاج الأيقوني، الانسجام التّداولي.⁽³⁾

* الإتيان بفكرة التّحليل الحجاجي للصّورة الإشهارية، فهو بذلك تجاوز الجانب اللّغوي لهذا التّحليل إلى جوانب غير لغوية، ومن خلال أعماله أصبح ما يُعرف بالحجاج الأيقوني.⁽⁴⁾

⁽¹⁾ المشروع الحجاجي للدكتور أبي بكر العزاوي، عبد اللّطيف عادل، مقال ضمن كتاب: الحجاج اللّغوي قراءات في أعمال الدّكتور أبو بكر العزاوي، الدّكتور حسن مسكين، ط1، إربد/الأردن، عالم الكتب الحديث، 2017، ص: 69.

⁽²⁾ الخطاب والحجاج، أبو بكر العزاوي، ط2، بيروت/لبنان، مؤسسة الرّحاب الحديثة، 2010، ص: 105.

⁽³⁾ المرجع نفسه، ص: 125.

⁽⁴⁾ للتوسع أكثر في هذه المسألة يُنظر في الفصل الرابع من كتاب الخطاب والحجاج بداية من ص: 99.

*ولعلَّ أهم شيء ميّز عمل العزاوي هو اعتباره للإسهامات التراثية والقدرة على توظيفها لخدمة اشتغاله الحجاجي، حيث استحضر حازم القرطاجني وعبد القاهر الجرجاني وسيبويه وابن هشام والرازوي، واستحضر علم المعاني، وذلك لإضاءة تحليله الحجاجي.⁽¹⁾ يقول رشيد شجيع في هذا الصدد: «استطاع بفعل تكوينه الموسوعي أن يجمع بين ما هو تراثي وما هو حديثي، فعصاميّاته جعلت انخراطه في المدارس النظامية للحصول على الشهادات الجامعية العليا، لا يؤثر على اختياره منهج العلماء الأسلاف في التّهل من منابع المعرفة»⁽²⁾

3. جهود العزاوي في تطوير نظرية الحجاج في اللغة من خلال مؤلفيه:

ترجع ريادة العزاوي في مجال الحجاج اللغوي إلى إنجاز أطروحته المتميّزة⁽³⁾ التي أشرف عليها ديكر سنة 1983، فهي التي فتحت له المجال أمام هذه النظرية المؤسّسة المعالم والمفاهيم ليسافر بها إلى العالم العربي عموما ومغربه على وجه الخصوص، ويُسقطها على اللغة العربية ويُحاول مقارنة مفاهيمها حجاجيا بتحليل مجموعة الخطابات المتنوعة من قرآن وشعر وأمثال وصور إخبارية، فهنا يظهر مكنم تميز الباحث في مجال الحجاج، فهو لم يكتف بالجانب النظري وإنّما تجاوزه إلى أبعد حدوده، ولم يكتف بأسسها وأصولها الغربية، وإنّما تجاوزها إلى جذورها العربية وذلك بمجموعة الإشارات المبثوثة في كتابيه التي دلّت على أنّ العزاوي بمعرفته الواسعة لدُور وأسرار العربية لم يمنعه في أن يقوم بإسقاط هذه النظرية على العربية ومحاولة تطويرها، فهو بذلك أثار العديد من القضايا التي تُعد بمثابة الاجتهادات التي طوّرت هذه النظرية نذكر أبرزها فيما يلي:

1.3 قضايا ضرورية في كتاب اللغة والحجاج:⁽⁴⁾

لقد أثار العزاوي في كتابه اللغة والحجاج العديد من القضايا الجوهرية باللغة الأهمية نذكر أبرزها في النقاط الآتية:

(1) يُنظر، اللغة والحجاج (عمق النظرية ودقة الإنجاز)، حسن مسكين، ص: 29.

(2) سمات التجديد في المشروع الحجاجي للدكتور أبو بكر العزاوي، رشيد شجيع، مقال ضمن كتاب حسن مسكين، ص: 123.

(3) إنّ أطروحة العزاوي المتميّزة في مجال الحجاج فتحت له آفاقا مستقبلية لتأليف العديد من الكتب ونشر المقالات والمشاركة في المنتقيات والندوات العلمية في مجال الحجاج اللغوي وتطوير هذه النظرية، وصحّح أن نطلق عليها اسم "نظرية الحجاج اللغوي العربي التطبيقي".

(4) طُبِع الكتاب لمرتين الأولى سنة 2006 عن الأحمديّة للنشر، والثانية بلبنان مؤسّسة الرّحاب سنة 2006، خصّص الكتاب لدراسة العلاقة بين اللغة والحجاج، ووصف بعض الجوانب الحجاجية للغة العربية.

3-1-1-1- الرّبط الحجاجي:

إنّ الخوض في غمار الرّوابط الحجاجية وتحليلها انطلاقاً من نصوص عربية هو من صميم الدّرس اللّغوي العربي القديم، وإذا توقفنا عند الرّوابط التي درسها العزاوي نجدها تتمثّل في الرّوابط الأكثر شيوعاً وانتشاراً (حتى-بل-لكن) فالرّابط الحجاجي يمثّل المرحلة الأساس أو الانطلاقة الأولى لبناء الأقوال وتسلسلها داخل الخطاب، والوظيفة الأساسية التي تقوم عليها الرّوابط هي الرّبط بين الحجج أو بين الحجج والنتائج ومن خلالها تتحدّد القيمة الحجاجية للأقوال.

3-1-2- الاستعارة الحجاجية:

يُعدّ العزاوي من الباحثين الأوائل الذين أولوا عنايةً خاصّةً للاستعارة، وأدرجها ضمن نظرية الحجج في اللّغة وعدّها من الوسائل اللّغوية التي يستعملها المتكلّم لتحقيق أغراضه الحجاجية، والتي تدخل ضمن ما سمّاه بالقوة الحجاجية، والاستعارة هي من صميم الدّرس البلاغي العربي القديم، واللّغة العربية ثرية من ناحية اللّغة المجازية التي يمتاز بها ويقول العزاوي في هذا الصّدّد: « إنّها من الوسائل اللّغوية التي يعتمد عليها المتكلّم بشكل كبير جداً، ما دمنا نسلم بفرضية الطّابع المجازي للغة الطّبيعية، وما دمنا نعتبر الاستعارة إحدى الخصائص الجوهرية للسان البشري»⁽¹⁾

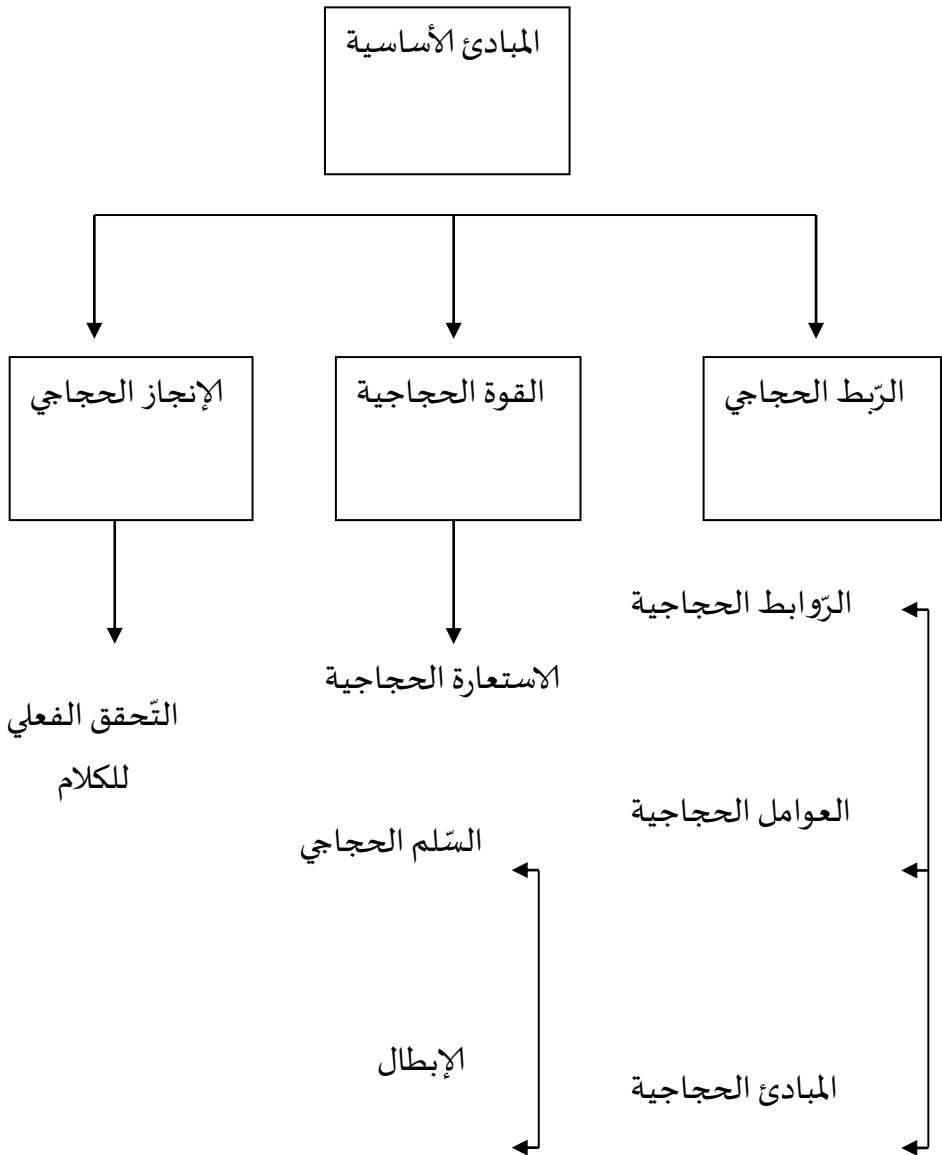
3-1-3- الإنجاز الحجاجي: (التّحقق الفعلي للكلام)

إنّ مسألة تحقيق البعد الإنجازي للغة تُعدّ من الأهداف الأساسية التي ترمي إليها التّداولية عموماً ونظريات الحجج على وجه الخصوص، وهي مرتبطة بنظرية الأفعال الكلامية عند أوستين لتتطوّر فيما بعد وتنتقل إلى المجال الحجاجي، وقد أطلّ العزاوي الحديث بشأن هذا المبدأ ليعطيه تعريفاً دقيقاً بقوله: « هو الذي يمنح الحجج سلطته التّأثيرية في تغيير الواقع وفي الإقناع... فكلّ ما تتضمنه اللّغة من إمكانيات تعبيرية الرّوابط والعوامل والمبادئ الحجاجية والأقوال المجازية والاستعارية لا يمكن أن تحقق وظيفتها إلّا عبر هذا الإنجاز المرتبط بمقاصد المتكلمين»⁽²⁾

⁽¹⁾ اللّغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص: 105.

⁽²⁾ نظرية الحجج: من اللغة إلى الخطاب: قراءة في مشروع الدكتور أبي بكر العزاوي، المدني بورحيس، مقال ضمن كتاب الحجج اللّغوي قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي، حسنت مسكين، ص: 168.

وعليه يمكن أن نوجز المبادئ الأساسية للنظرية الحجاجية في المخطط الآتي:



2.3 قضايا هامة تطبيقية في كتاب الخطاب والحجاج:

تظهر جدية عمل العزاوي من خلال هذا الكتاب، حيث لم يكتف بالتّظهير لمفاهيم نظرية الحجاج في اللّغة، بل تمّ تطبيقها على مجموعة الخطابات وتجاوز-في ذلك- دراسة الأقوال⁽¹⁾ يقول حسن مسكين في هذا الصّدد: «والواضح من خلال تتبعنا لهذه المؤلفات أنّ الأستاذ أبا بكر العزاوي لم يكتف فيها بتقديم هذه النّظريات الجديدة، وإنّما استند فيها إلى جانب التّطبيق، فكان بحق رائدا في هذا المجال»⁽²⁾

سنحاول من خلال هذا المبحث أن نقف عند أهم القضايا التّطبيقية التي عرضها الباحث والتي تجلّت في النّقاط الآتية:

*توسيع مجالات تطبيق مفاهيم وآليات النّظرية الحجاجية، فنجدّه قد حلّل العديد من الخطابات انطلاقا من مختلف الآليات اللّغوية التي أشار إليها علماء البلاغة والنّحو كالاستعارة والتّكرار وقضية الحوار، ومختلف الأفعال اللّغوية من أمر واستفهام وغيرها.

*إدخال فكرة التّحليل الحجاجي للصّورة الإشهارية ضمن أعماله، فهو بذلك تجاوز الجانب اللّغوي للخطاب إلى جوانب غير لغوية، وأصبح ما يُعرف بالحجاج الأيقوني.⁽³⁾

فالجانب التّجديدي الذي أتى به العزاوي هو ذلك الجانب التّطبيقي الرّصين ذو الصّبغة العربية، فهو بذلك تجاوز الجانب الإبستمولوجي للنّظرية إلى أبعد حدوده، ويمكن أن نطلق على ما جاء به الباحث باسم المنهج الحجاجي والذي أثبت نجاعته بالفعل...

(1) هنا يكمن الفرق بين دراسات العزاوي ودراسات ديكر، فنجد هذا الأخير قد درس الحجاج في اللّغة وحصره في بنية الأقوال فقط: أمّا العزاوي فتجاوزه إلى أبعد حدوده.

(2) الحجاج اللّغوي، حسن مسكين، ص: 06.

(3) للتوسع في مسألة تحليل الصّور الإشهارية أو ما يسمى بالحجاج الأيقوني، يُنظر في الفصل الرابع من كتاب الخطاب والحجاج بداية من الصّفحة 100.

4- الإسهامات التراثية في أعمال العزاوي:

سنحاول من خلال هذا المبحث أن نستحضر العديد من الشواهد والأدلة التي تُثبت أنّ العزاوي قد اطلع على التراث العربي، واستلهم العديد من الأفكار من أمه الكتب التراثية العربية (بلاغة-نحو-نقد)⁽¹⁾ ليبني آراء ومفاهيم هذه النظرية بالموازاة مع آراء ديكر و باعتباره المؤسس الفعلي لهذه النظرية، فنجد أنه قد أولى أهمية كبيرة للتراث العربي أثناء تنظيره وتطبيقه للمفاهيم الحجاجية، ونستحضر في هذا الشأن قول أحد الباحثين: « الأستاذ أبو بكر العزاوي من القلائد الذين جمعوا بين إتقان التراث بكل ينابيعه وامتداداته فهما وتفسيرا وتأصيلا، وإطلاعا واسعا وعميقا بالنتائج العلمية واللغوية والثقافية الحديث في تنوعه، وبمختلف لغاته من غير تقليد أو ذوبان»⁽²⁾ واستدلّ العزاوي في ذلك لأراء العديد من البلاغيين والنحاة نوجزها فيما يلي:

* في تعريفه لمصطلح الحجاج لم يغفل العزاوي-إلى جانب التصور الغربي لمفهوم الحجاج- عن التأصيل المعجمي العربي للمصطلح، وهذا ما عبّر عنه المدني بورحيس بقوله: « وإذا كان الباحث قد تبنى التصور الغربي لمفهوم الحجاج بمختلف تجلياته الدلالية والاصطلاحية فإنه عاد في كتابه (الخطاب والحجاج) إلى التأصيل المعجمي العربي للمصطلح، بل إنه يوسّع دائرة البحث الاصطلاحي من خلال تحديده لمصطلح الجدل...مما يدل على وعي الباحث بتاريخ المفهوم واستعمالاته المختلفة في الثقافة العربية القديمة»⁽³⁾

* إنّ العزاوي قبل أن يخوض في تحليل الروابط الحجاجية وتبيان مختلف استعمالاتها الحجاجية انطلق من آراء النحاة القدامى في تلك الروابط ليصل إلى المستوى الحجاجي لها، يقول أحد الباحثين: « قد قدّم المؤلف لتصوره هذا آراء ونظريات اللسانيين الغرب وبسطها بوضوح تام، ثمّ عرض تفسيرات النحاة العرب القدامى (المرادي والزّمخشري) لكن لم يقف عند مستوى العرض، وإنّما ناقش هذه التصورات وأضاف تصوره الخاص الذي استخرجه من قلب الآيات القرآنية التي حلّها، منتهيا إلى تخريج ذكي جدير بالتأمل والمتابعة»⁽⁴⁾

(1) من أبرز الكتب التراثية التي استلهم منها العزاوي العديد من الأفكار هي: التعريفات للجرجاني، مفاتيح الغيب للرازي، معاني الحروف للزماني، أساس البلاغة للزمخشري، منهج البلغاء للقرطاجي، مغني اللبيب لابن هشام...

(2) الحجاج اللغوي، حسن مسكين، ص: 07.

(3) نظرية الحجاج من اللغة إلى الخطاب: قراءة في مشروع الدكتور أبي بكر العزاوي، المدني بورحيس، مقال ضمن كتب حسن مسكين، ص: 160.

(4) الحجاج اللغوي، حسن مسكين، ص: 19.

فقد اعتمد في تحليله للرباط "بل" العديد من العبارات والشواهد المتناثرة في الكتب النحوية خاصة فيما يتعلق بالإضراب الانتقالي، ويستحضر قول الزمخشري في هذه المسألة انطلاقاً من تحليل الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۚ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۚ﴾ بِلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ ﴿١٦﴾^(١) بقوله: «الإضراب أنّ أمرهم أعجب من أمر أولئك، لأنهم سمعوا بقصصهم وبما جرى عليهم ورأوا آثار هلاكهم فلم يعتبروا، وكذبوا أشدّ من تكذيبهم».^(٢)

وعندما قام العزاوي بتحليل معاني الرباط "حتى" أشار إلى مسألة الخلاف القائمة بين النحاة حولها، مضيفاً وموضحاً استعمالات أخرى لها، مُنتهياً إلى أنها تتجاوز (التعليل) والغاية التي قال بهما النحاة، مثبتاً بالدليل والأمثلة.^(٣) فالملحوظ أنّ العزاوي استخرج الغايات الحجاجية للرباط الحجاجي "حتى" من عمق ذلك الاختلاف القائم بين النحاة، وقد أشار الباحث أحمد كروم^(٤) إلى مسألة الروابط الحجاجية والطّاقات الاستدلالية ومدى حضورها في الفكر العربي القديم ليستند في ذلك إلى أفكار الشيرازي في "شرح اللّمع" فيما يتعلّق بحروف المعاني، والزمخشري في "الكشاف" فيما يتعلّق بالطّاقات الاستدلالية لبعض الروابط، ويعطي أدلة من القرآن الكريم^(٥) ونجده يضيف -كذلك- آراء عبد القاهر الجرجاني في "دلائل الإعجاز" فيما يتعلّق بمسألة النظم؛ لأنها تلخص لنا كل ما جاء في النظريات الحجاجية الغربية أو ما يسمى بالبنية الاستدلالية^(٦)

فالعزاوي ينطلق في تحليله الحجاجي لمختلف الروابط الحجاجية انطلاقاً من الآراء النحوية للقدامى، فيستشهد بأدلتهم ثمّ يُحلّل الاستعمالات الحجاجية لتلك الروابط ليخرج في النهاية بقاعدة عامّة يُبرز فيها مختلف تلك الاستعمالات، وهذا إن دلّ فإنّما يدل على أنّ العزاوي له اطلاع واسع فيما يتعلّق بالقضايا النحوية في التراث العربي، وخير دليل على ذلك استحضاره لمختلف الشواهد والأدلة خاصّة المتعلقة بالروابط الحجاجية.

(١) سورة البروج، الآيات: 17-19.

(٢) اللّغة والحجاج، أبو بكر العزاوي، ص: 62، نقلاً عن: الكشاف للزمخشري، ج 4، ص: 188.

(٣) الحجاج اللّغوي، حسن مسكين، ص: 21.

(٤) أحمد كروم أستاذ بجامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، أكادير، له مقالا عنوانه: الروابط الحجاجية والطّاقات الاستدلالية، قراءة في كتاب اللّغة والحجاج.

(٥) للتوسع أكثر في هذه المسائل يُنظر في مقال أحمد كروم المنشور ضمن كتاب حسن مسكين بداية من ص: 50-55.

(٦) للتوسع، حسن مسكين، ص: 55-60.

* وإذا توقفنا عند باب الاستعارة نجده يُولي أهمية كبيرة لما قدّمه العرب القدماء من تفسيرات، وهذا ما أكدّه حسن مسكين بقوله: «...ولم يفته أن يشير في هذا السياق إلى تصور اللّغويين والنقاد العرب القدماء للاستعارة، وللتقسيمات التي أثبتوها لها، خاصّة عند عبد القاهر الجرجاني، ممّا يؤكّد أهميتها في توجيه الخطاب وتحقيق أهداف المتكلّم في كل خطاب...»⁽¹⁾ وقد أدرج العزاوي الاستعارة ضمن مباحث نظرية الحجاج في اللّغة ومن أبرز وسائلها اللّغوية؛ لأنّها تدخل ضمن الوسائل اللّغوية التي يستغلها المتكلّم بقصد توجيه خطابه، وتحقيق أهدافه الحجاجية، كما تعتبر النّوع الأكثر انتشاراً لارتباطها بمقاصد المتكلمين وسياقاتهم التّخاطبية.⁽²⁾

وقد قسّم العزاوي الاستعارة إلى حجاجية وغير حجاجية (بديعية) وهذا وارد عند القدماء خاصّة عند عبد القاهر الجرجاني والذي قسّمها إلى استعارة مفيدة وغير مفيدة، فالأولى تلعب دوراً أساسياً في البناء الشعري، ولولاها لم يحصل ما تريد تصويره، أمّا الثّانية غير مفيدة فهي لا تعدو أن تكون تلاعباً بالألفاظ⁽³⁾ في حين يرى العزاوي في النّوعين أنّ الأولى تدخل ضمن الوسائل اللّغوية⁽⁴⁾ التي يستعملها المتكلّم بقصد توجيه خطابه، وبقصد تحقيق أهدافه الحجاجية، أمّا الثّانية فإنّها تكون مقصودة لذاتها، ولا ترتبط بالمتكلمين وبمقاصدهم وأهدافهم الحجاجية.⁽⁵⁾

* كما نجد لثنائية المعنى الحجاجي والمعنى الإخباري حضوراً عند العزاوي، فمسألة المعنى شغلت حيزاً كبيراً في الدّرس العربي القديم، خاصّة مع البلاغي عبد القاهر الجرجاني فنجد ما يقابل المعنى الحجاجي عنده هو مصطلح معنى المعنى، ويقول العزاوي في هذا الشّأن: «فقد كانت هناك محاولات منذ القديم تسعى للتقليل من أهمية المكوّن الإخباري في المعنى، وتحاول أن تبين أنّ جزءاً يسيراً جداً من أقوال وجمل اللّغات الطّبيعية له طبيعة وصفية تمثيلية»⁽⁶⁾ فمعظم الجمل في اللّغة الطّبيعية تحمل في الأساس وظيفة حجاجية بالإضافة للمعنى الإخباري الذي تؤدّيه.

(1) المرجع نفسه، ص: 24.

(2) إستراتيجيات الخطاب، ص: 452.

(3) يُنظر، أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) دط، بيروت، دار المعارف، 1981، ص: 42.

(4) المقصود بالوسائل اللّغوية مجموعة الآليات التي تشمل الروابط الحجاجية والعوامل الحجاجية وحتى بعض الألفاظ والتراكيب.

(5) نحو مقارنة حجاجية للاستعارة، أبو بكر العزاوي، مقال منشور ضمن مجلة المناظرة، ع. 4، الرّباط، 1991، ص: 83.

(6) اللّغة والحجاج، ص: 37.

* وإذا توقفنا عند كتابه الثاني وبالتحديد عند تحليله لسورة الأعلى، نجده قد أدرج نصا تفسيريا لفخر الدين الرازي من خلال كتابه "مفاتيح الغيب" واعتمد عليه في هذا التحليل، حيث ربط تحليل السورة بالجانب الاستدلالي⁽¹⁾ واستحضر نصه بقوله: «أما قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى⁽²⁾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى⁽³⁾﴾ فاعلم أنه سبحانه وتعالى لما أمر بالتسبيح فكأن سائلا قال: الاشتغال بالتسبيح إنما يكون بعد المعرفة، فما الدليل على وجود الرب؟ فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى⁽²⁾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى⁽³⁾﴾ واعلم أن الاستدلال بالخلق والهداية هي الطريقة المعتمدة عند أكابر الأنبياء عليهم السلام، والدليل عليه ما حكي الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام، أنه قال: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ⁽⁴⁾﴾ وحكي عن فرعون أنه لما قال لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى⁽⁵⁾﴾ قال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ⁽⁶⁾ ثُمَّ هَدَى⁽⁷⁾﴾ وأما محمد ﷺ فإنه تعالى أول ما أنزل عليه هو قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَى بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ⁽⁸⁾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ⁽⁹⁾﴾ هذا إشارة إلى الخلق، ثم قال: ﴿أَفَرَأَى وَرَبُّكَ الْأَكْثَرُ⁽¹⁰⁾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ⁽¹¹⁾﴾ وهذا إشارة إلى الهداية، ثم إنه تعالى أعاد ذكر تلك الحجة في هذه السورة، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى⁽¹²⁾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى⁽¹³⁾﴾ وإنما وقع الاستدلال بهذه الطريقة كثيرا لما ذكرنا أن العجائب والغرائب في هذه الطريقة أكثر، ومشاهدة الإنسان لها واطلاعه عليها أتم فلا جرم كانت أقوى في الدلالة.⁽¹⁴⁾ فنجد العزاي قد استشهد في البداية بأقوال المفسرين في دراسته للأبعاد الاستدلالية الحجاجية لسورة الأعلى ليصل إلى المعنى الحجاجي العام لها، ويقول في هذا الصدد: «وإذا كنا قد استشهدنا بكلامه هنا فلتدعيم ما قلناه عن حجاجية هذه السورة وطبيعتها الاستدلالية»⁽¹⁵⁾

(1) إذا توقفنا عند مصطلح الاستدلال نجده يطال مختلف القضايا اللغوية في تراثنا العربي خاصة فيما يتعلّق بنظرية معنى المعنى عند الجرجاني.

(2) سورة الأعلى، الآيات: 3/2.

(3) سورة الشعراء، الآية: 78.

(4) سورة طه، الآية: 49.

(5) سورة طه، الآية: 50.

(6) سورة العلق، الآية: 02.

(7) سورة العلق، الآية: 03.

(8) الخطاب والحجاج، ص: 26-27.

(9) مرجع سابق، ص: 27.

*كما استند العزاوي- في تحليله لقصيدة العلة لأحمد مطر- إلى رأي حازم القرطاجني بشأن التعارض الموجود بين الحجاج والشعر والذي نادى فيها إلى عدم تعارض الخطابة والشعر⁽¹⁾ والشعر⁽¹⁾ فيقول في هذا الشأن: « ولقد كان كثير من فلاسفتنا العرب ومعهم بعض النقاد أمثال حازم القرطاجني أكثر اعتدالا⁽²⁾ » ويثبت العزاوي بأن النص الشعري ليس لعبا بالألفاظ فقط وليس نقل تجربة ذاتية فحسب إنه يهدف كذلك للحث والتحرير والإقناع والحجاج ويسعى إلى تغيير أفكار المتلقي ومعتقداته، وإلى دفعه لتغيير وضعه وسلوكه ومواقفه.⁽³⁾ ويضيف في تحليله لهذه القصيدة ظاهرتي الاختيار والتكرار ونادى من خلالهما بفكرة الانسجام الحجاجي التي تؤديه ظاهرة التكرار، منطلقا في ذلك من المظاهر العامة والاستعمالات المختلفة لها كمبحث بلاغي قديم.

*كما نجده قد تحدّث عن مختلف الأفعال اللغوية⁽⁴⁾ في تحليله لمختلف الخطابات من أمر ونهي واستفهام وعوامل حجاجية... فمصطلح الأفعال اللغوية نجده يقابل مصطلح الأساليب الإنشائية في تراثنا البلاغي العربي.

وعليه يمكن القول إنّ العزاوي كان رجلا موسوعيا بالفعل جمع بين الأدب واللسانيات، وجمع بين ما هو تراثي أصيل وبين مختلف النظريات الغربية، فهو بذلك حاول أن يُقدّم نظرية أصيلة تتميز بالوضوح والدقة والشمولية لا يقوم بقطيعة مع التراث كما ادعى بعض اللغويين أو اتجه إلى ترميم المقولات التراثية، ولكن اعتمد بناءً تركيبيا للتعرف على آليات الحجاج عن كُتب مع تمثل جديد لكلا النظريتين العربية والغربية.⁽⁵⁾

(1) لقد قابل العزاوي هذه المسألة بفكرة التعارض بين الشعر والحجاج التي نادى بها اللساني تولين، فهو يرى أنّ الحجاج يقوم على الابتذال بينما يقوم الشعر على الرؤية الفردية، وهذا على غرار القرطاجني الذي يرى أنّ لكلا النمطين هدف واحد هو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر لمقتضاه، للتوسع أكثر يُنظر الخطاب والحجاج، ص: 36.

(2) الخطاب والحجاج، ص: 36.

(3) المرجع نفسه، ص: 139.

(4) الأفعال اللغوية هي الجمل والأقوال التي لا تصف أي واقع في العالم الخارجي فلا يمكن أن يُقال عنها أنها صادقة (مطابقة لواقع ما) أو كاذبة (غير مطابقة له) ولكن بمجرد النطق بها تتشكل في حدّ ذاتها أفعالا معينة، فجملة "ما أجمل السماء" تتشكل بمجرد النطق بها إنجازا لفعل التعجب. للتوسع أكثر يُنظر الخطاب والحجاج، ص: 54.

(5) يُنظر، الاستلزامات الفكرية لكتاب اللغة والحجاج للدكتور أبو بكر العزاوي، سعيد بليماني، مقال ضمن كتاب حسن مسكين، ص:

خاتمة:

ومن أبرز النتائج التي توصّلنا إليها ما يلي:

* إن الإقرار بجديّة عمل العزاوي لم يبق رهين البعد النظري لهذه النّظرية وإنّما تجاوزه إلى بعده التّطبيقي، وبين طرائق اشتغال آلياتها في جُلّ الخطابات الحجاجية.

* تمكّن أبو بكر العزاوي من إعادة قراءة التّراث العربي بنظرة غربية، الشّيء الذي أسهم في تطور الدّرس العربي الحجاجي.

* إنّ العزاوي أراد أن يُقيم جسرا بين المنجز الغربي والتّراث البلاغي العربي، وخير دليل على ذلك ما أشار إليه في غصون كتابيه من قضايا بلاغية كال تكرار والاستعارة والحوار ومختلف الأساليب الإنشائية...

* هناك تقاطع نسبي بين مفاهيم نظرية الحجاج في اللّغة ومواضيع البلاغة العربية، وهذا ما يدل على احتواء هذه النّظرية للبلاغة العربية القديمة، ومن ثم توصّلنا إلى أنّ أعمال العزاوي هي بمثابة دعوة معاصرة لتجديد البلاغة وتطوير مواضيعها.

* إنّ العزاوي قد جاء بمنهج جديد يمكن أن نطلق عليه اسم المنهج الحجاجي والذي تجلّى من خلال تحليله لمختلف الخطابات، وهذا ما أثبت نجاعته بالفعل.

وفي الأخير يمكن القول إنّ العزاوي رغم استلهامه لأفكار ديكر في تطوير نظرية الحجاج في اللّغة؛ إلّا أنّ نزعتة العربية وتأثره بالتراث العربي بارز وجلي خاصّة وأنّه لم يكتف بالتنظير لهذا التّيار، وإنّما أسقطه على معظم الخطابات العربية، وهذا إن دلّ فإنّما يدل على أنّ نظرية الحجاج اللّغوي جاءت لتُطور وتحوي-في نفس الوقت-البلاغة العربية القديمة بصورة أو بأخرى، حتى وإن لم يكتمل نُضجها مع العزاوي فلا زال الوقت مُتاحا لجلّ الباحثين والمتخصّصين في السّير على خطاه، أملين في أن تكتمل معالمها عربيا.

فهرس المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم، رواية حفص عن عاصم.
2. أبو بكر العزاوي، حوار حول الحجاج، ط1، الدار البيضاء، الأحمديّة للنشر والتوزيع، 2010.
3. أبو بكر العزاوي، الخطاب والحجاج، ط2، بيروت/لبنان، مؤسسة الزحّاب الحديثة للطباعة والنشر، 2010.
4. أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، ط1، الدار البيضاء، منتديات سور الأزيكية، 1426هـ/2006م.
5. أبو بكر العزاوي، نحو مقارنة حجّاجية للاستعارة، مجلة المناظرة، العدد4، 1991.
6. أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي (ت471هـ)، أسرار البلاغة، دط، بيروت، دار المعارف، 1981.
7. حسن مسكين، الحجاج اللغوي قراءات في أعمال الدكتور أبو بكر العزاوي، ط1، إربد/الأردن، عالم الكتب الحديث، 2017.
8. حمّادي صمود، أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، دط، تونس، كلية الآداب بمنوبة، دت.
9. حمّو النّقاري، التّحاج طبيعته ومجالاته ووظائفه، ط1، الرباط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1427هـ/2006م.
10. عبد الهادي بن ظافر الشّهري، إستراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية، ط1، بنغازي/ليبيا، دار الكتاب الجديد المتحدة، 2004.

11. J.C. Anscombe et Oswald Ducrot, **L'argumentation dans la langue**, éditeur bruxelles, pirre mardaga, 1983.